قُربان الطف.. عبد الله الرضيع

في قلب الصحراء الواسعة، حيث تلتقي الرمال الذهبية بالسماء الزرقاء الصافية، كانت كربلاء تشهد يوماً لا يشبه غيره من الأيام. كان الإمام الحسين يقف بشموخ، يحيط به أصحابه وأهله، والجميع يشعر بحرارة الشمس وعطش الأرض. كانت القلوب مليئة بالإيمان، رغم كل الصعاب التي واجهتهم في ذلك اليوم الطويل الذي سجل فيه التاريخ أسمى معاني الثبات.

داخل الخيمة الهادئة، كانت الأم "رباب" تضم طفلها الصغير "عبد الله" إلى صدرها بحنان يمتزج بالألم. كان عبد الله غصناً طرياً لم يتجاوز الستة أشهر من عمره، وكان يئن بصوت خافت من شدة العطش الذي جفف شفاهه الصغيرة. لم تكن هناك قطرة ماء واحدة تروي ظمأه، لكن ملامحه كانت تشع بطهر وبراءة لا توصف.

دخل الإمام الحسين إلى الخيمة، فرأى طفله الصغير يذبل كزهرة عطشى في مهب الريح. انحنى وحمله بين يديه بحنو الأب وعظمة القائد، ونظر في عينيه الصغيرتين اللتين كانتا تبحثان عن قطرة ماء. قرر الحسين أن يأخذ ابنه ليطلب له جرعة ماء من القوم، عسى أن تحرك براءته القلوب التي قست، وتذكرهم بمعنى الرحمة.

سار الإمام الحسين في أرض المعركة، حاملاً عبد الله على ذراعيه كأنه يحمل أمانة السماء. كانت الشمس تتوسط كبد السماء، والرمال تحت قدميه تلتهب حرارة، لكنه مشى بخطوات ثابتة وواثقة لا تعرف التردد. كان يتقدم نحو القوم لا بسلاح، بل برضيع لا يملك سوى عطشه وبراءته سلاحاً في وجه الظلم.

وقف الحسين أمام الجيش، ورفع طفله الصغير عالياً بيده ليكون واضحاً للعيان. نادى بصوت هز أركان المكان: "يا قوم، إن لم ترحموني فارحموا هذا الطفل، ألا ترونه كيف يتلظى عطشاً؟". في تلك اللحظة، كان عبد الله صامتاً تماماً، وكأن روحه الصغيرة تدرك عظمة المهمة التي يقوم بها والده لإتمام الحجة على القلوب القاسية.

وفي لحظة خاطفة، بينما كان الصمت يلف المكان، انطلق سهم غادر من بعيد. كان ذلك السهم حاقداً لا يعرف معنى الطفولة ولا يحترم قدسية الحياة. أصاب السهم رقبة الرضيع الصغيرة وهو بين يدي والده، ليرتقي عبد الله شهيداً في أسرع رحلة نحو السماء، تاركاً خلفه درساً في المظلومية لم ينسه الزمان.

لم يبكِ الحسين جزعاً، بل كان صابراً محتسباً وهو يرى دماء طفله تفيض. جمع بيده دماء طفله الطاهرة ورفعها عالياً نحو السماء، فما سقطت منها قطرة واحدة على الأرض، وكأن السماء قد احتضنت دماء البراءة لتظل شاهدة أبدية. كان وجهه يشع بالرضا واليقين رغم عظم المصيبة التي اهتزت لها القلوب.

في تلك اللحظة المقدسة، نطق الحسين بكلمات خلدها التاريخ، كلمات تلخص منتهى الإيمان والثبات: "هَوّنَ ما نزل بِي أنه بعين الله". كان يعلم يقيناً أن الله يرى كل ما جرى، وأن هذا القرب من الخالق هو ما يجعل كل تضحية، مهما بلغت عظمتها، يسيرة في سبيل الحق والعدل والمبادئ التي لا تموت.

عاد الحسين بخطوات مثقلة بالوقار إلى الخيام، حيث كانت رباب تنتظر الخبر. لم يعد يحمل الماء الذي طلبه، بل كان يحمل وسام الشهادة لأصغر بطل في تاريخ كربلاء. استقبلته رباب بصبر عظيم وقلب مؤمن، مدركة أن ابنها قد صار رمزاً أبدياً للحق وانتصار المظلوم على الظالم في كل زمان ومكان.

انتهت حكاية عبد الله في كربلاء، لكن أثره بدأ ليعيش في ضمائر الأحرار. علمنا هذا الطفل الصغير أن التضحية لا تقاس بالعمر، بل بصدق الموقف. سيبقى نور عبد الله يضيء دروب السائرين نحو الحق، مذكراً الجميع بأن البراءة هي أقوى صرخة في وجه الظلم، وأن الله هو خير الحافظين وناصر المظلومين.

النهاية

قُربان الطف.. عبد الله الرضيع

الطبعة الأولى - ٢٠٢٦م